

وأخيراً

أشهر من أفتوا في عهد الرسول ﷺ
من المهاجرين

عمر بن الخطاب - عثمان بن عفان - علي بن أبي طالب

obeikandi.com

عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -

عمر بن الخطاب هو الناسك الذى تفجر نسكه حركة، وذكاء وعملا وبناء. هو المعلم الذى صحح مفاهيم الحياة وأفرغ عليها نوراً من روحه، وكساها عظمة من سلوكه وكان للمتقين إماماً..!! هو البسيط فى قوة، القوى فى عدل ورحمة.. هو الحاكم المؤمن الذى أنجبته البشرية ورباه الإسلام.

هو من وصفوه بأنه: "إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع.. فقد ورث من طباع أبيه صرامة لا تعرف الوهن، وحسماً لا يؤرجحه التردد، وتصميماً لا يقبل أنصاف الحلول.

إنه صاحب الطبيعة الفذة التى قلما تتكرر، وقلما يكون لها فى الأعداد الهائلة من البشر نظير.

ولقد أدرك الرسول ﷺ عظمة تلك الطبيعة البشرية التى رزقها عمر.. وكان يعرف ما تتطوى عليه من أصالة واقتدار ولذلك كان يدعو ربه بأن ينصر الإسلام به. ولقد ربح الإسلام بانضمام عمر ﷺ إليه، وقد قال عبد الله بن مسعود: "مازلنا أعزة منذ أسلم عمر، كان إسلامه فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر"!!

وقد لقبه رسول الله ﷺ بالفاروق، بعد أن فرق الله بإسلامه بين الحق والباطل، وبين الملاينة والمواجهة.

وعمر هو ثانى الخلفاء الراشدين بعد أبى بكر الصديق وهو صاحب المقولة الشهيرة: "ماذا نقول لربك غدا إذا أتيت" ومن هذه المقولة يتمثل دين عمر ومنهاجه، وتستمد حياته موازينها ومعاييرها. وعلى الرغم من أنه كان أقوى من كل شهوة وزلة، حتى لأنه معصوم من الخطأ عصمة كاملة، وقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة، ومع هذا يقف بين يدي الله موقف الخشية والحذر والحياء حتى أنه حين يؤم الناس فى الصلاة كان يسمع بكاءه ونشيجه أصحاب الصف الأخير..!

هو ذلك الإنسان الخاشع الضارع الأبواب الذى لا شىء يؤرقه فى نومه، ويقلقه فى صحوه مثل الخشية من أن يسأل ربه غداً فى عتاب "لماذا فعلت هذا يا عمر؟" وحين تولى الخلافة بعد أبى بكر خطب عمر فى الناس قائلاً:

"أيها الناس إنى قد وليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم اضطلاعاً بأمركم ما توليت ذلك منكم، وكفى عمر انتظار الحساب"!!

وحين أصبح حاكماً حرم نفسه من الطيبات المشروعة للحاكمين، ومن الطيبات المشروعة للمواطن العادى.

وقد فعل ذلك بروح المسؤولية التى حبيبت إليه أن يكون أول من يجوع إذا جاع قومه.. وآخر من يشبع إذا شبعوا وكان يقول: "كيف يعينى شأن الناس، إذا لم يصبنى ما يصيبهم!!"

ولقد رفض أمير المؤمنين إلحاح أصحابه وإخوانه لكى يولى ابنه "عبد الله" منصباً من مناصب الدولة.. كما رفض أن يرشحه عند موته للخلافة ضمن السنة الذين رشحهم ليختاروا من بينهم وقال:

"حسب آل عمر أن يحاسب منهم واحد، هو عمر"

وقد وضع مبدأ جليلاً فقال:

"من استعمل رجلاً لمودة أو قرابة، لا يحمله على استعماله إلا ذلك. فقد خان الله ورسوله والمؤمنين".

وعن الاجتهاد والفتوى فى عهد عمر كما روى عن شريح أنه قال: قال لى عمر بن الخطاب أن أقض بما استبان لك من قضاء رسول الله: فإن لم تعلم من أقضية رسول الله ما يساعدك فاقض بما استبان لك من أقضية أئمة المجتهدين، فإن لم تعلم فاجتهد رأيك واستشر أهل الصلاح والعلم.

ولو نتبعنا تاريخ "عمر" لعرفنا كيف كان أظهر الصحابة فى استعمال الرأى والاجتهاد وكيف كان للشورى فى عهده دور مهم.. وكيف أدرك أن الحرية حق تعلنه لحظة الميلاد.. وكيف أن الحرية لديه هى حرية الحق الذى فوق جميع

القيود.. وكيف كان يرى الناس أحرار في أن يعلنوا آراءهم ويحدثوا بما في أنفسهم، فإن أصابوا ربح الجميع وإن كان هناك خطأ تبينوه.

وأعظم مثال على عدل عمر وديمقراطيته حين طلب من العباس أن يترك داره لأنها قريبة من المسجد ليزيد مساحته بها لأنه سمع رسول الله يقول بذلك قبل وفاته، وأن يعوضه بأفضل منها ولكن العباس رفض وطلب منه أن يحتكموا أمام حذيفة بن اليمان ووافق عمر، ولم يستدع حذيفة بل ذهب إليه هو والعباس الذي قضى بعدم أخذ عمر لداره إلا برضاه وليس قهراً، فعدل عمر عن هذا.. وحينها نظر العباس إليه وقال: ألا تزال تريد أن تغلبنى على داري؟

قال عمر: لا ...

قال العباس: ومع ذلك فقد أعطيتك الدار تزيدها في مسجد رسول الله!

وكان عمر عالماً فقيهاً، وقد قال عنه عبد الله بن مسعود: "كان عمر أعلمنا بكتاب الله. وأفقهنا في دين الله".

وكان أصحابه يتحدثون بأنه ذهب وحده بتسعة أعشار العلم.

وقد قال رسول الله ﷺ مشيداً بفطنته الخارقة: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه".

ولعقله المضيء وبصيرته الذكية جعله الرسول مصدراً من مصادر التشريع حين قال لأصحابه:

" إنى لا أدرى ما مقامى فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدي، أبي بكر وعمر".

وكانت المظاهر العابرة لا تكفى عنده لتكوين أحكام عن الآخرين. فحين سمع واحداً يطرى آخر ويمتدحه قائلاً، إنه رجل صدق فيسأله عمر: هل سافرت معه يوماً..؟

يقول الرجل: لا.

- هل كانت بينكما خصومة يوماً..؟

- لا..

- هل أتتمنته يوماً على شيء..؟

- لا

فيقول عمر: "إذن لا علم لك به. لعلك رأيته يرفع رأسه في المسجد ويخفضه"!!!..

إنه عمر هذا الإمام الورع التقى لا يرى في رفع الرأس وخفضه في المسجد كافياً للثقة بمن يفعل هذا، لا تهوينا لشأن العبادة، ولكن إحاطة بأسرار النفس البشرية.. فهو في معرفته بالناس. لا يكتفى بتمحيص جانب العبادة فيهم إنما يُطل على الشخصية كلها، فالعبادة عنده تعنى استواء الشخصية كلها وكانت التقوى عنده قوة وطهر وسعة حيلة وتفوق.

وكان يدرك "عمر" بفتنته أن الفضيلة ليست إنسحاباً من الحياة خوفاً من الفتنة، بل هي مجابهة الحياة ومغالبة الفتنة.. وفي هذا يُسأل: أيهما أذكى وأفضل - رجل لا يأثم لأن نفسه لا تشتهى الإثم، أم رجل تشتهى نفسه الإثم ولا يأثم؟

فيجيب عمر: "الذين يشتهون المعصية، ولا يعملون بها، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم".

وكان من الممكن أن يفتى في قضيتين متماثلتين بفتاوى مغايرة فإن سئل عن السر في هذا يقول: "ذاك على ما قضينا، وهذا على ما نقضى".. أى أن ظروف القضيتين مختلفة، وإن تماثلت الوقائع. فهو لا يضع فتاواه في قالب جامدة بل كان يتعامل معها بحسب الظروف والأسباب التي تستجد أو تنقص، فمثلاً نراه ينهى حكماً شرعياً كان قائماً في عهد الرسول ﷺ وأبو بكر ؓ ولا يزال منطوق هذا الحكم آية تتلى في كتاب الله.. وهذا الحكم، هو تخصيص جزء من ضريبة الزكاة للمؤلفة قلوبهم.. وهؤلاء هم من دخلوا الإسلام باقتناع ضعيف أو بغير اقتناع، ففرض القرآن لهم في بيت المال حظاً يأخذون منه الزكاة تالفاً لهم حتى لا ينصرفوا عن الدين قبل أن يذوقوا حلاوة الإيمان فيقبلوا عليه راغبين مؤمنين.. وقلب عمر وجوه الرأي في هذا الشأن ثم قال:

"لقد كان رسول الله يعطيهم، والإسلام يومئذ ضعيف.. أما اليوم فقد أعز الله دينه وأعلى كلمته، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولن يتسع هذا الدين إلا لمن يدخله راعياً مؤمناً".

وهكذا نرى أن عمر قد طور في هذه الواقعة التشريع ليتناسب مع الوضع الجديد.

وأمثلة أخرى توضح إعمال العقل قبل إبداء الرأي:

حينما جاء إليه بمسلم ارتكب ما يوجب الحد، ويشهد ثلاثة شهادة تدينه، ولم يبق إلا شهادة الرابع، ثم يصير الحد عقاباً محتوماً.. ويرسل عمر يستدعي الشاهد.. ولا يكاد يراه مقبلاً حتى تأخذه رهبة.. وحين تترسخ خطاه، ينظر إليه أمير المؤمنين ويقول:

"أرى رجلاً أرجو ألا يفضح الله به واحداً من المسلمين".

ويقدم الشاهد، ويقول: لم أَر شيئاً يوجب الحد.. ويتنفس عمر الصعداء.

ويأتيه رجل يسعى ذات يوم ظاناً أنه يحمل إليه بشرى. فيقول يا أمير المؤمنين، رأيت فلاناً وفلاناً يتعانقان وراء النخيل، فيمسك عمر بتلابيبه، ويعلوه بمخفقتة، ويقول له بعد أن يوسعه ضرباً:

"هلا سترت عليه، ورجوت له التوبة، فإن رسول الله قال: من ستر على أخيه ستره الله في الدنيا والآخرة!!"

وإنه ليوصي الناس بهذا الفقه العظيم فيقول:

"هكذا فاصنعوا.. إذا رأيتم أماً لكم زلة فسددوه ووقفوه، وادعوا الله أن يتوسع عليه، ولا تكونوا عوناً عليه للشيطان!!.."

ويأتيه يوماً رجل يستفتيه قائلاً:

- إن ابنتي كانت قد أصابت حداً من حدود الله، وأخذت الشفرة لتذبح نفسها، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئت، ثم تابت بعد ذلك توبة حسنة. وهي اليوم تخطب إلى قوم. فأخبرهم بالذي كان..؟

فيجيبه عمر ذو الورع الذكي:

"أتعتمد إلى ماستره الله فتبديه؟ والله لئن أخبرت بها أحداً من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار، اذهب وانكحها نكاح العفيفة المسلمة".

وعلى الرغم من أنه كان شديد الوطأة، شديد البأس إلا أنه كان شديد الذكاء

أيضاً ولا يقضى بعواطفه بل يستعين بهذا الذكاء.. فطبعي أنه ينفر من الإثم ولكنه يمحص ظروف اجتراحه تمحيص خبير ويضع القاعدة الذهبية التي تقول:

"لأن أعطل الحدود في الشبهات، خير من أن أقيمها في الشبهات"!!..

وفي إحدى الليالي وكان عاسا في المدينة.. سمع سيدة تشكو بثها وحزنها لغياب زوجها، وتبين عمر أن زوجها مجند في أحد جيوشه وعند الصباح ذهب لابنته حفصة وسألها:

يا حفصة. كم تصبر المرأة عن زوجها؟

فتجيبه: تصبر شهراً، وشهرين، وثلاثة، وينفذ مع الشهر الرابع صبرها.

فيسن من فوره قانوناً، بالألا يغيب في الجهاد جندي متزوج أكثر من أربعة أشهر.. ويرسل لزوج السيدة يستدعيه من فوره..!!

ويسمع شيخاً كبيراً يبكي في شعر جزل ولده الوحيد الذي طال غيابه عنه.. ويسأل عمر فيعلم أنه هو الآخر في أحد جيوش المسلمين، فيستدعيه فوراً.. ثم يسن قانوناً ألا يخرج إلى الجهاد من له أبوان كبيران إلا بعد إذنهما..!!

وهكذا كان يستمد قوانينه من حاجة الناس ومن واقع الحياة.

ولقد درج العرف والقانون على اعتبار الاعتراف سيد الأدلة.. وهذا حق ولكن أمير المؤمنين يقرر بفطنته أنه ليس كذلك دائماً، ولا بد لكى يؤخذ الاعتراف كدليل، ألا يعزل عن الظروف التي تكتفه وتحيط به، فلربما يجيء نتيجة خوف أو إكراه، وعندئذ يفقد قيمته.. ويقول عمر:

"ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أبعته أو أخفته، أو حبسته أن يقر على نفسه"!!..

وقد كان يأمر قواد جيوشه ألا ينزلوا عقابا بجندي حتى "يطلعوا من الدرب قافلين".

فكان يرى أنه إذا ارتكب جندي خطأ ما، فلتحقق الواقعة والمسئولية ولكن توقيع الجزاء والعقوبة، يظل مرجأ حتى يغادر الجندي بلاده ويعود لوطنه ويعلم هذا بالخوف من أن يلحق الجندي بالأعداء ويأوى لصفوفهم لو أنزل به العقاب.

- وإنه ليجاء إليه يوما بغلمان صغار السن سرقوا ناقة رجل من مُزينة؟ فلايكاد يراهم صفر الوجوه، ضامري الأجسام حتى يسأل: من سيد هؤلاء...؟ قالوا: حاطب بن أبي بلتعة.
- قال: إلیَّ به.
- فلما جاء حاطب، سأله: أنت سيد هؤلاء..
- قال: نعم يا أمير المؤمنين.
- قال عمر: لقد كدت أنزل بهم العقاب، لولا ما أعلمه من أنكم تدئبونهم وتجيعونهم - لقد جاعوا فسرقوا، ولن ينزل العقاب إلا بك!!
- ثم سأل صاحب الناقة:
- يا مزني، كم تساوي ناقتك؟
- قال: أربعمائة..
- قال عمر لحاطب: اذهب فأعطه ثمانمائة!!
- ثم قال للغلمان: اذهبوا، ولا تعودوا لمثلها!!
- وهكذا إذا نتبعنا ما كان يسنه عمر من قوانين وما كان يطلقه من فتاوى فلن يتسع لنا المجال لكي نرصده جميعا والأمثلة كثيرة وعديدة فهناك كتبه لقواده وتوجيهاته العسكرية وكتبه لولاته..
- وقبل أن يتسنى لنا أن نختم الحديث في هذا الشأن لا بد أن نذكر مثالين يعبران عن مدى ذكائه وبساطته ودعابته:
- فحين يبصر امرأة تستجيش أحزان الناس وتمسح دموعها الكواذب فيعلوها بمخفقتة.. ويطردها ويقول: "إنها لاتبكي لشجونكم وإنما تبكي بدهامكم..".
- ويسأل أحد أولاد هرم بن سنان الذي خلده بشعره، زهير بن أبي سلمى، فيقول له أنشدني بعض مدح زهير أباك. فينشده فيقول عمر: إنه كان ليحسن فيكم القول..
- يجيبه الرجل: ونحن والله. إن كنا لنحسن له العطاء..

فيقول عمر: قد ذهب ما أعطيتموه.. وبقي ما أعطاكم..!!

وفي حديث لعمر أخرجه آدم بن أبي إياس في "العلم" عن الأحوص بن حكيم ابن عمير العبسي قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد: "تفقهوا في الدين، فإنه لا يعذر أحد باتِّباع باطل وهو يرى أنه حق، ولا يترك حق وهو يرى أنه باطل"^(١).

رحم الله عمر رحمة واسعة فمن حظ البشرية أنه واحد منها، لقد ألهمه الله رشده، ووقاه شر نفسه، ومنحه من استقامة الشخصية وجلالها ما جعله فريداً متميزاً لا في بلده فقط ولا في عصره وإنما ملء كل زمان ومكان.

* * *

(١) كنز العمال ج ٥ ص ٢٢٨.

عثمان بن عفان - رضى الله عنه -

هو عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين، وقد جاء إسلامه سماحة وحياء.. لأحياء من أصدقاء مقربين، بل حياء من الله الذى كان يرى آيات وجوده تلمع فى وجدانه وتهز مشاعره.. وحياء من رسوله الذى كانت آيات صدقه تملأ الأنفس الصافية تقبلا ويقينا حتى زكاه الرسول قائلا:

"أصدق أمتى حياء، عثمان!!" وقد قال عنه الرسول ذات يوم لعائشة: ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة"!!؟. ودائما ما كان الرسول ﷺ يشيد بهذا الحياء كأنما يرفعه قدوة ونبراسا..

وقد كان إسلام "عثمان" مبكراً، فهو أحد الخمسة، أو السبعة الأوائل الذين سبقوا إلى الإسلام.. تاركا حياته المستقرة الممتلئة الأمانة إلى فراغ مجهول تتهدده المحاذر والأخطار!!..

وقد والى عمه "الحكم بن أبى العاص" تعذيبه مما كان يزيد إصرار عثمان وتمسكه.

وحين نمت أعداد المسلمين الذين دخلوا فى دين الله وأوغلت قریش فى تعذيبها واضطهادها أمرهم الرسول بالهجرة للحبشة حيث كان على رأسها يومئذ ملك عادل.. وكان "عثمان" أول مهاجر إليها، ومعه زوجته "رقية" بنت رسول الله، وكان الرسول قد زوجها له بعد إسلامه.

وحين ودعهما الرسول أخذ يقول: "إنهما لأول من هاجر إلى الله، بعد نبي الله لوط". وتوالت هجرة "عثمان" فقد عاد لملكه ثم هاجر للمدينة.. وكانت كلمات الرسول التى وصفته بأنه " أول مهاجر إلى الله " تهز أشواقه إلى الله، وتشحن تصميمه على أن يحيا دائما فى مستوى هذا الوصف وهذا التكريم.

ولقد تنازل لإسلامه ولهجرته عن جاهه، وعن ماله وكان يبدو بعبائه وسخائه وكأنه الممول الوحيد للأمة الناشئة الجديدة، ويتضح هذا من عدة أمثلة:

أولها: عندما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة لم يكادوا يستقرون بها حتى فاجأتهم مشكلة الماء، وكان بها عين نقيض بماء عذب طيب المذاق تدعى

"بئر رومة" ويملكها رجل يهودى ويبيع ماء القرية بمُدّ.. وتمنى رسول الله لو يجد بين أصحابه من يشتريها حتى تفيض ماؤها على المسلمين بغير ثمن.. وسارع عثمان لتحقيق تلك الرغبة وعرض على اليهودى شراءها فأبى فساومه "عثمان" على نصفها واشترى النصف باثنى عشر ألف درهم على أن تكون لليهودى يوما ولعثمان يوما وحين وجد اليهودى نفسه وقد خسر سوقه التى كانت رابحة فعاد يعرض على "عثمان" أن يشتري منه النصف الثانى، فاشتراه.. وفاضت البئر بمائها العذب تروى أهل المدينة بغير ثمن وبغير حساب.

ثانيها : عندما زاد عدد الداخلين فى الإسلام وضاق بهم المسجد تمنى رسول الله ﷺ لو يجد من بين أصحابه من يشتري الرقعة المجاورة ليزيد بها المسجد رحابة واتساعا فما كان من عثمان إلا أن ذهب لأصحاب ذلك المكان واشتراه بثمن باهظ قدره الرواة بخمسة وعشرين ألفاً.. وفعل ذلك ثانية بعد فتح مكة واشترى داراً ملاصقة للمسجد بعشر آلاف دينار للتوسعة أيضاً.

ثالثها: فى غزوة "تبوك" حينما تعرض الجيش لعسرة ولم تكف تبرعات المسلمين لإعداده ، وحينها نظر الرسول إلى الصفوف الطويلة العريضة من الذين تهيأوا للقتال وقال: "من يجهز هؤلاء، ويغفر الله له"؟؟..

وما كاد "عثمان" يسمع نداء الرسول هذا، حتى سارع إلى مغفرة من الله ورضوان.. وقام بتجهيز الجيش كله، حتى لم يتركه فى حاجة إلى خطاب أو عقاب!!..

وحينما علم الإمبراطور الرومانى بخروج الرسول وأصحابه غادر دمشق ناقضاً يديه من محاولته اليائسة ورجع الجيش بكل عتاده الذى أمده به "عثمان" الذى لم يطالب باسترجاع شيء مما دفعه سواء أموالاً أو بغيراً أو خطاماً.

وقد سمى بذى النورين لأنه تزوج ابنة الرسول "رقية" ولما توفاهما الله زوجه ابنته "أم كلثوم" وحينما انتقلت للرفيق الأعلى أسف الرسول ﷺ قائلاً: "لو أن لنا ثلاثة لزوجناك إياها".

ورجل فى ثراء عثمان وجاهه إلا أن هذا لم يفره لمباهج الدنيا، بل كان يقضى نهاره صائماً ولىله قواماً، وكان يتفجر قلبه رحمة وحناناً حتى قال عنه رسول الله ﷺ :

"لكل نبي في الجنة رفيق"

"ورفيقي في الجنة عثمان..؟؟"

وهكذا قد كان في العبادة واحداً من أفاضها المعدودين، وبطلاً من أبطالها المبرزين.

وحين تولى "عثمان" ﷺ الخلافة جاء على أثر خليفته ليس لهما نظير وبصفة خاصة جاء بعد عشر سنوات من تولى عمر الخلافة وما فرض على المسلمين من منهج صارم وعدل مكين وتحمله، لولائه وعماله على مثل ما حمله على نفسه من زهد ونقش ووعاء.

كما جاء والدولة تتسع رفعتها بغير حساب.. ويدخل تحت رايتها أجناس كثيرة متباينة الطبائع والغايات..

وأيضاً قد فتح على المسلمين فتحة عريضة بحيث أصبحت دخولهم من التجارة، وأنصباؤهم المشروعة من الفىء ومن العطاء تزيد على احتياجاتهم زيادة تنقل الكثيرين منهم إلى عداد الأثرياء وكبار الأثرياء.

وقد كان "عمر" ﷺ يرى إقبال الدنيا وهى فى بدايتها فيرتجف إشفاقاً على المصير.. ويقول: "إن للمال ضراوة كضراوة الخمر"..

ويذكر قول الرسول ﷺ لأصحابه يوماً:

"والله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكنى أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها".

ولكن لو نظرنا لموقف "عثمان" ﷺ... من مشاكل الثراء سنجده يختلف فى التقدير وفى النتائج عن موقف سلفه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

فبينما الاثنان متفقان على أن الثراء المتفاقم يشكل خطراً على المسلمين الذين نذروا حياتهم للدعوة والجهاد والذين زين لهم دينهم أن يكون زاد أحدهم من الدنيا كزاد الراكب، نجد نهجيهما فى مقاومة هذا الخطر يختلفان.

فعمر كان يركز على قمع الاستمتاع المشروع بهذا الثراء ويقاوم الاستسلام لطبيبات الحياة الدنيا.. فهو يبدأ هذا القمع مع نفسه وأهل بيته وعشيرته، ثم مع ولاته وعماله..

أما "عثمان" ﷺ كان يرى أن المال كأنما خلق للاستمتاع بالحياة مادام الثراء حلالاً والاستمتاع مشروعاً فليكن للناس حظوظهم من طيبات الحياة ونعيمها، لا فرق بين الأمراء والولاة والعامة.. وهى وجهة نظر تتفق مع نشأته وسجاياه.. فرأى أنه ليس من حقه أن يعزل والياً رغد عيشه وترفهمت حياته - كما كان يفعل عمر - مادام فى استمتاعه هذا لا يجترح منكراً ولا يقارف إثماً.

وبالطبع هو كخليفة له الحق فى اختيار الأسلوب الذى يمارس به سلطته.. وقد كتب لولياته وأمراء الحرب والأئمة على الصلوات والأمناء على بيوت المال، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحثهم على طاعة الله ورسوله ويحضهم على اتباع السنة وترك الإحداث والابتداع".

وحين رأى بيت المال عامراً ممتلئاً، زاد فى عطاء الناس، واتخذ فى المسجد سماطاً يقدم عليه بصورة دائمة الطعام الطيب للمعتكفين والمتعبدین وأبناء السبيل.

ولكن للأسف لم يكد يستقر فى منصبه ويتهياً لإنجازاته حتى فوجئ بالانتفاضات المسلحة تنقض على الدولة من كل مكان.. ولقد أغرى زعماء تلك الفتن ما علموه من أن الخليفة الجديد رجل فى السبعين.. وقد زاد من اشتعال تلك الفتن أيضاً ما أشيع من أن الإسلام قد انتهى بمقتل عمر، وأن الفوضى قد سادت البلاد.

وعلى الفور أصدر أوامره بإطفاء النار وقهر المرتدين.. بل ليس ذلك فحسب، بل أصدر أوامره أن يجاوز الفتح تلك البقاع المتمردة إلى حدود أبعد.. حتى لا تبقى أطرافاً للدولة يسهل عليها التمرد فيما بعد.

وقد انتصرت جيوش المسلمين ومع الجيوش العائدة من معاركها بالنصر، كانت الغنائم والأموال تتدفق على العاصمة وكأنها أبواب السماء فتحت بماء منهمر.

والخليفة الكهل الذى كانت سنة قد بلغت السابعة والسبعين رابض فى المدينة نعم بفتح الله عليه وعلى جيوشه.. وقد أخلفت كل الظنون للخليفة الذى أساء أعداء الإسلام به الظنون!!

ولم يشغله الجهاد والغزوات عن اهتمامه بالعمارة، فراح يجمل المدينة، ويزيد في بناياتها وعمارتها، مبتدئاً بمسجد الرسول ﷺ، فوسع فيه وبناه بالحجارة المنقوشة، واتخذ عمده من الحجارة المرصعة.

وكما استطاع أن يجابه قوى الشر الزاحفة على الإسلام تريد أن تطفئ نوره، فقد بهرنا أيضاً بإنجازه العظيم في جمع المسلمين على مصحف واحد، حفظ القرآن بين دفتيه إلى يوم الدين.

ولكن لم تسر السفن، كما تشتهي الأنفس، فسرعان ما بدأت الفتن تشتد من جديد، وأخذ المتآمرون يستغلون أخطاء الخليفة في التشهير به ومن تلك المآخذ..

قد أخذوا عليه أنه عزل نقرأ من الصحابة ووضع مكانهم أقرباءه الذين لم تكن لهم أو لبعضهم على الأقل سابقة ترفعهم لمستوى الولاية على المسلمين.

أما عن الأموال العامة.. فقد قيل إن الأمويين استغلوا صلتهم وقرابتهم، فاستحوذوا على مائيس لهم بحق.

عن موقفه من بعض فضلاء الصحابة وما اتخذ من إجراءات عنيفة ضد بعضهم.

والمآخذ الرابع هو موقفه من بعض مسائل الدين.. إذ كان فيها اجتهاد خاص.

ويهمنا في هذا الصدد المآخذ الرابع وهو موضوع كتابنا عن الفتوى والاجتهاد.. وكيف راحوا يتصيدون للخليفة ما حسبوه بسوء تدبيرهم طعنا سينال من ورع الخليفة وحسن طاعته لله ورسوله.

فقالوا: إن الخليفة وحّد المصاحف كلها في مصحف واحد، وجمع المصاحف الأخرى وأحرق أوراقها وهذه خطوة باركها جميع الصحابة، حيث إنه حينما جمع الصحابة الذين اختلفهم بجمع المصحف بكتابته على حرف واحد بعدما أتاه "حذيفة بن اليمان" طالبا منه ذلك، وخاصة بعد أن أصبح القرآن كتاب شعوب كثيرة لكل منها لهجته ولسانه، وقد أحس الاختلاف في قراءته مصدر خطر عظيم يهدد القرآن ذاته، ولقد ظهر هذا الخطر جليا في الواقعة التي شهدها "حذيفة" إذ نشب خلاف مفرع بين أهل الشام وأهل العراق.

كان أهل الشام يقرأون على قراءة المقداد بن الأسود وأبي الدرداء.
 وكان أهل العراق يقرأون على قراءة عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري.
 وتعصب كل من الطائفتين لقراءته، وكاد الخلاف يُمس نزاعاً.. فصداما. وحين
 فرغ "حذيفة" من غزوته امتطى راحلته وراح يسابق الريح للمدينة ليعرض هذا
 الأمر على الخليفة قائلاً:
 يا أمير المؤمنين..

"أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها كما اختلف الذين من قبلهم
 في كتبهم".

ولم يتوان الخليفة لحظة وأرسل من فوره لأصحاب الرسول وشاورهم في
 الأمر الذي وافقوا عليه، ومن ثم استدعى جمع من الصحابة ممن شاركوا في
 جمعه من قبل في عهد أبي بكر وعمر وشرح لهم مهمتهم وأوصاهم إذا اختلفوا
 في شيء أن يكتبوه بلغة قريش.

وعندما أنجز الأصحاب عملهم الجليل، أمر الخليفة أن ينسخ عددا من
 المصاحف، وأرسل لكل إقليم من أقاليم الدولة مصحفاً.
 فما عساه يفعل بالمصاحف الأخرى، وبالألواح التي كانت لاتزال موجودة عند
 بعض الصحابة حاملة عدداً من الآيات؟

لقد جمعها جميعاً وأنهى مهمتها.. مفسحاً مكانها للمصحف الواحد الجامع يلتقى
 المسلمون حول آياته المباركات عبر القرون.. فما الخطأ الذي ارتكبه الخليفة في
 ذلك، وقد تم هذا العمل بمباركة الصحابة أجمعين؟!

• ثم قالوا: إن الخليفة أتم الصلاة بمكة أثناء حجه، بينما كان الرسول
 وصاحبا يقصرون الصلاة.. مع أن قصر الصلاة في السفر رخصة لا واجب
 وإذا تخطى المسلم الرخصة إلى العزيمة فلا حرج عليه، وقد أجاب الإمام "علي"
 وهو يحاور المتمردين: "إن الخليفة قد تأهل بمكة ونوى الإقامة بها، فأنتم
 صلاته".

• وقالوا أيضاً: إن الخليفة لم يُقم حد القتل على "عبيد الله بن عمر" وكان

"عبيد الله" قد انطلق في ثورة غضبه لمقتل والده أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" مقتل طفلة لأبي لؤلؤة المجوسى الذى اغتال أمير المؤمنين، وكذلك قتل الهرمزان بعد أن شاع نبأ تأمره مع أبي لؤلؤة..

صحيح أن الشريعة الإسلامية كانت توجب القصاص، ولكن الخليفة اجتهد في القضية اجتهدا كان مبعثه تقديره للظروف التى دفعت ابن أمير المؤمنين عمر للنار لأبيه، ولإسلام.. كما أنه لم يشأ أن يجمع على آل الخطاب حزينين وكارثتين - الأولى: مقتل "عمر" غدرا، والثانية: قتل ولده قصاصا، ثم إنه لم يطلق سراح "عبيد الله" مهذرا بذلك الدم الذى أراقه.. بل استبدل الدية بالقصاص، ودفع لأولياء الدم دية سخية، وكبيرة..

• وقالوا إنه قد أعاد إلى المدينة الحكم بن أبى العاص، وكان الرسول ﷺ قد نفاه منها..

ولقد أجاب الخليفة عن هذا، بأنه كان قد شفع له عند رسول الله ﷺ ووعده الرسول بالعفو عنه بعد حين.. ثم إن الخليفة لم يرده إلى المدينة إلا بعد أن زالت أسباب نفيه، إذ كان قد ألق وتاب عما كان استحق من أجله عقوبة النفي.

• وقالوا الكثير عن الخليفة الذى واجههم ولم يقف موقف المستعلى على الرأى، ولا المستكف عن الحق، بل وقف على ملا من المسلمين فى يوم الجمعة يعترف بالأخطاء التى وقعت ويرفع ضراعتة إلى الله مستغفرا وتائبا.. باكيا ومبكيا جميع الذين كانوا له يستمعون وينصتون!!

وأمام موقفه هذا، تبددت الموجة الأولى من الهجوم على المدينة. ذلك الهجوم الذى كان المتمردون قد انطلقوا به من مصر.

وكان الخليفة "عثمان" ﷺ.. قد بلغ الثمانين من عمره ولا تزال خصاله وفضائله غضة فتية، تقوده على طريق اقتناعه ومبادئه.

ولكنه لم يسلم من الفتن والمؤامرات التى كانت تحاك حوله.. ولم تمض أيام قليلة حتى عاد الثوار زاحفين على المدينة بعدما كان قد أقنعهم بالعودة فى المرة الأولى على ابن أبى طالب على أن تلبى مطالبهم فيما بعد متحججين بأنهم

اعتقلوا شخصاً في الطريق لعودتهم معه كتاب مهور بخاتم الخليفة وفيه أمر لوالى مصر بقتلهم وصلبهم...!! وهذا بالطبع محض افتراء لأنه ليس من خصال الخليفة هذا..

واشتدت نار الفتنة وحاصر الثوار منزل الخليفة وأحكموا حصارهم حتى أنهم منعوا زواره.. ومنعوه الماء.. ونسوا أنه هو من اشترى "بئر رومة" من حر ماله في أوائل أيام الهجرة.. وتناول عليه بعض زعمائهم وتوقحوا عليه بشتائم بذيئة على ملا من الناس...!! ولم يكفهم تهجم أحدهم عليه وهو فوق منبر رسول الله ﷺ يتهبأ لإلقاء خطبة الجمعة...!! لقد غرهم حلمه وأغرثهم مصابرتة.. وقد قال لهم من قبل: "... إن الناس قد أسرعوا إلى الفتنة وطال عليهم عمرى.. أما والله لئن فارقتهم ليتمنون لو أن عمرى طال فيهم كل يوم بسنة.. وذلك مما يرون من الدماء المسفوكة.."

وحين اشتد الحصار دخل عليه "زيد بن ثابت"، وقد رأى الثوار يتنادون لحصار داره فيقول له:

"يا أمير المؤمنين.. هؤلاء الأنصار بالباب يقولون: إن شئت كنا أنصاراً لله مرتين.."

فيجيبه الخليفة الرحيم:

"أما القتال، فلا..!!"

ويصيح في الصحابة الذين تجمعوا حول داره ليواجهوا الثوار بالسلاح: "إن أعظمكم عنى غناءً، رجل كف يده وسلاحه...!!"

وحين يرى أبا هريرة شاهراً سلاحه فى اهدتاج شديد، يدعوهُ إليه ويقول له:

"أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وأنا معهم..؟"

"أما إنك والله لو قتلت رجلاً واحداً، لكأنما قتلت الناس جميعاً".

وحين يعلم أن عصابة كبيرة من شباب المسلمين وعلى رأسهم الحسن والحسين وابن عمر وعبد الله بن الزبير، وقد أخذوا مكانهم لحراسته وشهروا سلاحهم يتفطر قلبه أسى، ويدعوهم إليه ويتوسل إليهم قائلاً:

"أنشدكم الله وأسألكم به، ألا يراق بسببي مَحْجَنَ دم".

وضاقت الصدور المكبوتة تحت ضلوع زعماء الفتنة وخشوا أن تدور عليهم الدائرة، فأمروا بمهاجمة الدار.. وما هي إلا دقائق حتى كانت الخطة قد أنجزت، وفجأة رأى الخليفة أمام أولئك المتسورين ولم يبال بهم، فقد كان يقرأ في كتاب الله واستمر في قراءته.. بينما اندفع الجناة نحوه ليقترفوا جريمتهم البشعة النكراء..

لم يقاوم، ولم يتحرك من مجلسه، ولم يتدخل عن مصحفه، ولم يزد على أن قال حين أصابت إحدى ضرباتهم الأثمة كفه فأصابتها في صميمها:

"والله إنها لأول يد خطت المفصل.. وكتبت آي القرآن".

وحين رأى دماؤه تتفجر، فتضمغ أوراق المصحف، طواه حتى لا تلمس الدماء بعض آياته، ثم ضمه وهو يسلم الروح إلى صدره.

رحم الله "عثمان" لقد تعب طويلاً، خلال اثنتي عشرة سنة قضاها في الخلافة حاملاً أعباءها ولأواءها.

ويكفينا قول "عبد الله بن عمر" - رضي الله عنهما -، حينما كان يتلو قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَتِيلٌ ۚ إِنَّهُ أَلِيلٌ سَاجِدٌ ۖ وَقَائِمًا يَحْذَرُ ۚ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ﴾ (١).
ثم يقول: إنه "عثمان بن عفان"..

* * *

على بن أبي طالب - رضى الله عنه -

هو على بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم الرسول، زوجته رسول الله ﷺ فاطمة ابنته بأمر من السماء، وقال لها:

"أما والله زوجتك سيداً فى الدنيا والآخرة" ولما نزلت الآية: ﴿وَمَنْ حَاكَمَكَ فَبِهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ أَمْرِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَعْبُدْ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(١). دعا النبى ﷺ علياً وفاطمة وبناهما الحسن والحسين وضمهم إليه وقال: "اللهم هؤلاء أهلى".

وحين آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار اختص على - كرم الله وجهه- بأخوته.

وقد كان مضرب المثل فى البطولة والشجاعة، اختاره النبى ﷺ لينام فى فراشه فى الليلة التى عقدت قرين فيها أمرها على قتله ﷺ فاختاروا من كل قبيلة رجلاً جلدًا فاتكا، واجتمعوا عند بابه ليلاً حتى إذا أصبح الصباح وخرج من باب الدار انقضوا عليه وضربوه بسيوفهم المشحودة ضربة رجل واحد.

ولنا أن نتخيل كيف أمضى فتى الفتیان هذه الليلة.. فلا بد أن يكون بين جوانحه قلب أسد لا يخشى البأس!

وكم كانت له من بطولات احتلت حيزاً كبيراً فى صفحات المجد والشرف ومنها مواقفه الجليلة فى يوم خيبر وأحد وغيرها من المشاهد.

لقد كان - ﷺ وأرضاه- نموذجاً فى كل صفات الخير، فى الشجاعة وفى الكرم وفى الوفاء وفى التواضع وفى الزهد وفى العلم وفى اللين وفى الرفق.. فى كل شىء كان على سابقاً.. وكيف لا يكون كذلك وقد تربى فى بيت النبوة ونما وترعرع فى ظل معلم البشرية وهاديتها سيد الأنبياء والرسل ﷺ.

وقد وصف الإمام النووى علياً - كرم الله وجهه- بقوله:

"هو أحد العشرة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد السابقين إلى الإسلام، وقد اختلف العلماء فى أول من أسلم من الأمة، فقيل خديجة، وقيل أبو بكر وقيل على.. قال ابن المسيب: ما كان أحد

يقول: سلونى غير على. وقال عبد الله بن عباس: أعطى علىّ تسعة أعشار العلم، ووالله لقد شاركهم فى العشر الباقى" (١).

ووصفه الإمام المناوى فى طبقاته بقوله:

"هو باب مدينة العلوم والمواهب، ولّى المتقين، وإمام العادلين.. ختم الله به الخلافة كما ختم بمحمد ﷺ النبوة.. وكلامه أفرد بعدة أسفار كبار، وأما ما نقل عنه من النقل والتزهد، وما اشتهر به من الترهيب والتعبد فكثير.. وقال ﷺ: "والذى فلق الجنة، وبرأ النسمة إنه لعهد النبى الأمى ﷺ إلىّ ألاّ يحببنى إلا مؤمن، ولا يبغضنى إلا منافق" (رواه مسلم).

وفى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال: "كنا نعرف المناققين ببغضهم علياً.."(٢).

لقد التقت شخصية البطل والرجل والمسلم فى شخصية الإمام علىّ أصدق لقاء.

لم ينفصم البطل عن الرجل، عن المسلم فى حياة "علىّ" على الإطلاق فإذا رأيناه يبارز خصماً مثلاً؛ فليس البطل المتمكن هو وحده الذى يبارز بل إن رجولة الرجل؛ وورع المسلم هما اللذان يرسمان للبطل أسلوب المبارزة وأدائها!!

وحين أباح الرسول ﷺ للمسلمين أن يستعملوا رأيهم واجتهادهم الخاص إذا عرضت لهم مسألة لم يجدوا لها جواباً فى القرآن أو الحديث.. وقد أقر "علىّ" على التشريع بالاجتهاد عندما بعثه إلى اليمن، فقد روى أنه ودعه بقوله: "اللهم اهد قلبه، وثبت لسانه". وأوصاه ألا يقضى بين خصمين حتى يسمع كلام كل منهما، وقال له: "إنك إن اجتهدت فأصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر واحد".

وقد عرضنا لبعض الأمثلة فى اجتهاد "علىّ" فيما سبق.

وقد تعرض الإمام "علىّ" لمحنة كبرى بدأت بتعرضه لموقعة الجمل وما تحمله من معاناة نفسية ومعنوية حين خرج عليه أحب الصحابة لقلبه طلحة والزبير - رضى الله عنهما - والسيدة عائشة - رضى الله عنها - يطالبون بدم

(٢) الكواكب الدرية.

(١) تهذيب الأسماء واللغات.

عثمان، وخروجه إليهم في محاولة لإخماد تلك الفتنة قبل أن يستشري أمرها ولكنهم كانوا قد سبقوه إلى البصرة وقامت معركة بين الفريقين أشعلها الكارهون للإسلام وأحكموا مؤامرتهم واستمر القتال سبعة أيام وقتل يومئذ الصحابيـان الجليلان كما قتل من الفريقين ما يقرب من عشرة آلاف.

وعلى الرغم مما عانى، فبعد انتهاء المعركة قام الإمام "على" بتجهيز أم المؤمنين - سيدتنا عائشة- بكل ما تحتاج إليه في رحلة العودة إلى المدينة، وشيعها بنفسه وسير معها بعض أولاده ورجاله.

واستمر يعيش محنته وخاصة بعد تعرضه لخدعة التحكيم من معاوية بن أبي سفيان على يد عمرو بن العاص ومحاولة خلعه وحين عصاه جنوده وشيعته ومحبيه، وإعلان فريق كبير من الجيش عدته حوالى اثني عشر ألفا التمرد ورفع راية العصيان رافضين نتيجة التحكيم وراحوا يرددون القول: لا حكم إلا لله.

وبذا ظهر الخوارج الذين شقيت بهم الأمة طويلا ولا تزال، والذين اعتقدوا أنهم وحدهم المسلمون حقا، وأن جمهور الأمة قد ارتدوا للكفر فاستباحوا دماءهم وأموالهم.

وما أن فرغ أمير المؤمنين "على" من الخوارج وأراد السير لأهل الشام فإذا برجاله يستمهلونهم بحجة الاستعداد للقتال وراحوا يتسللون من معسكره خفية، ومن بقى مع الإمام راحوا يتقاعسون عن القتال ويتدافعون بطريقة القهقرى وهو يعظمهم بكل موعظة، ويستحثهم بأبلغ القول، ولكن لا حياة لمن تنادى!!

وفي تلك الأثناء تمكن معاوية ؓ من الاستيلاء على مصر، ومن بعدها الحجاز واليمن..

ولعل خطب "على" أبلغ دليل على ما كان يشعر به حينئذ.. ومن خطب "على" ؓ التي تقطر مرارة وأسى بسبب خذلان شيعته وعصيائهم له في أخريات أيامه والتي أمر أحد أصحابه بقراءتها على أهل الكوفة في المسجد الجامع بعد صلاة الجمعة وقال فيها:

".. أما والله لو ددت أن الله أخرجني من بين أظهركم ، وقبضني إلى رحمته

من بينكم.. ولوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم، فقد والله ملأتم صدري غيظاً، وجرعتمونى الأمرين أنفاساً، وأفسدتم على رأبى بالعصيان والخذلان.. حتى قالت قریش: إن ابن أبى طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم!! هل كان فيهم رجل أشد لها مراساً، وأطول مقاساة منى؟؟.. لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وهأنذا اليوم قد عدوت الستين.. ولكن لا رأى لمن لا يطاع!!" وهكذا فالدنيا - لأولياء الله وأحبابه- تعب ونصب، وقد قال الحبيب ﷺ: "لا راحة للمؤمن دون لقاء الله".

وكان ﷺ قد أخبر "على" بتفاصيل قتله حتى عرقه من سيقتله وفي أى ساعة فكان - كرم الله وجهه- إذا لقي عبد الرحمن بن ملجم يشير إليه قائلاً لأصحابه:

- هذا قاتلى.

فإذا قالوا له:

- ألا تقتله؟

يقول لهم:

- ومن يقتلنى إذن؟

وقد تحققت نبوءة رسول الله ﷺ حين قال له يوماً:

- "يا على، من أشقى الأولين وأشقى الآخرين؟"

فقال: الله ورسوله أعلم.

قال: "أشقى الأولين عاقر الناقة، وأشقى الآخرين الذى يطعنك يا على". وأشار ﷺ إلى الموضع الذى سيطعن فيه.

وهكذا وكما رأينا تحققت النبوءة وقتل رحمه الله بسيف عبد الرحمن بن ملجم..

رحم الله "على" ﷺ فلم يبق أحد من المسلمين إلا بح صوته ترحماً عليه، وقد وقف أحد كبار الصحابة وهو الصحابى الجليل "عبد الله بن عمر" يقول والدموع تبلل لحبته: "ما أجدنى أسى على شىء فاتنى فى حياتى، إلا على أنى لم أقاتل مع "على" الفئة الباغية".

وأحس المسلمون حينئذ بفداحة ما فعلوه وخاصة فى العراق الذين أحسوا أنهم

ضالعون في الإثم وشركاء في الوزر، يوم تخلوا عنه وتركوه وحده في الفضاء الموحش!! وراحوا يبكون، ويولولون..

رحم الله الإمام على رابع الخلفاء الراشدين وخاتمهم كما كان رسولنا الكريم ﷺ خاتم الأنبياء.. رحم الله إمامنا فكان نعم الإمام الفقيه العادل الشجاع العالم الرحيم..

والذي في إسلامه كان نموذجاً عظيماً مكتمل الشكل والجوهر فكان إسلامه عبادة، ونسكاً.. جهاداً، وبذلاً.. ترفعاً، وزهداً، فطنة وورعاً.. سيادة، وتواضعاً.. قوة، ورحمة.. عدالة، وفضلاً.. استقامة، وعلماً.. بساطة، وتمكناً.. ولاء، وفهماً.

* * *